

مهنة الصفارين تطوي آخر صفحاتها التراثية

2016-01-27 مروة حسن الجبوري

بين أزقة السوق القديم، تعالت أصوات المطارق وهي تضرب على المعادن، لتعزف سمفونية التراث القديم، فما ان تدخل السوق حتى تصدح من بين المحال اصوات المطارق الضاربة، فهناك من يضرب على قطعة النحاس لتأخذ الشكل المطلوب، وهناك من ينقش عليها باستخدام المطرقة والأزميل، بينما هناك عامل فنان آخر يزخرف أشكالاً جميلة على صفائح النحاس المطروقة، ليضيف بعدها لمساته الاخيرة فيرصعها بالأحجار أو يطلبيها بالفضة.

حرفيون عراقيون، صنعوا كل هذه الفنون، وتوارثوا المهنة فجعلوها تلتحق بأسمائهم، فاصبحوا يتميزون عن غيرهم بلقب الصفار او الصفارين، مهنتهم تجذب الاذان قبل العيون، فمجرد ان تسمع صوت عمل الصفار لا تستطيع ان تمر من دون ان تقف وتأخذ نظرة على الزخارف والالوان، وحركة المطارق وأيدي العمال.

ما يعرف بمهنة الصفارين أو (الصفافير) كما يطلق عليهم عامة الناس من تصليح الأدوات المنزلية، وتلميع الاواني القديمة، وصناعة الاباريق والقدور وأواني المطبخ، إن اغلب العاملين في هذه المهنة توارثوها جيلا بعد جيل، فكانت مهنة الصفارين مرغوبة جدا من قبل الناس قديما.

أسرار في هذه الصناعة

كانت معظم المواد المنزلية (الأواني) او جميعها تصنع من مادة (الصفرة) حتى عام (1953) وبعدها، تم منع استخدام الاواني المصنوعة من الصفرة من وزارة الصحة، حيث توقفت هذه المهنة لمدة من الزمن، وبعدها انتقلت الى صنع التحفيات، والاباريق المزخرفة والمطلية بالالوان، وهذا زاد وساعد على انتشارها وأبقاها في عهد (عبد الكريم قاسم)، حيث عادت حركة هذا السوق من جديد، ومع قدوم السياح الاجانب وشرائها بسعر مغري انتشرت هذه الصناعة اكثر.

وبعد مرور فترة من الزمن ومع بداية الحروب التي قامت في العراق عام 1980 توقف اصحاب هذه المهنة عن العمل لعدم توفير مادة الصفر، والتي كانت توزع عليهم عن طريق الجمعية التعاونية للحرف والصناعات الشعبية منذ عام 1959، إلا ان النظام آنذاك حجز مادة النحاس (الصفر) للصناعات الحربية والقتال، وهذه هي البداية المؤلمة للصفارين، فما كان من اصحاب هذه المهنة المخلصين في مهنتهم إلا ان يعتمدوا على انفسهم وعلاقاتهم، والقيام بشرائها بسعر مكلف من السوق السوداء، من أجل الحصول على هذه المادة، وهناك من هجرها، وترك صناعتها من اجل لقمة العيش بعيدا عن مهنتهم الاصلية .

وفي ظل انعدام حركة السياحة أجبر العديد من أصحاب المهن إلى العزوف إلى مهن أخرى، لكن حتى مع هجر النقاشين لمهنتهم، تبقى فئة قليلة من هؤلاء الحرفيين مخلصين للمهنة، يحاولون إعادتها إلى الحياة من جديد، على الرغم من الموت والنسيان الذي وجدت نفسها فيه، وقد يأتي يوم من الأيام ونسمع أصوات مطرقة النحاس هنا أو هناك.

متى أنشأ سوق الصفارين؟

وعندما أنشأ هذا السوق كان يقع بالقرب من المدرسة المستنصرية التي كانت جامعة للعلوم، ويعود تاريخ سوق الصفافير في بغداد إلى القرن الثالث عشر الميلادي؛ وكان الغرض من إنشائها هو توفير المتطلبات اللازمة للناس وأهل العلم من الطلبة والمدرسين في ذلك الزمن، وكان الصفارون يصنعون لهم ما يحتاجونه من فوانيس وقناديل، وغيرها من الأواني والقذور وغيرها، وكان يضج السوق بأصوات المعادن، حتى يذكر في تاريخ بغداد أن السوق كان مكاناً مناسباً لتعويد الخيول على القتال من خلال سماعها ضجيج المعادن، ولكي لا تفر أثناء الحروب عند سماعها صليل السيوف وأصوات القتال .

مهنة الصفارين والأدب العربي

هذه المهنة الحرفية لها فضل كبير على الادب والشعر العربي، فالخليل بن احمد الفراهيدي اشتق الاوزان الشعرية من ضربات المطارق وذلك عندما دخل الى السوق واصغى الى كيفية الايقاعات،

وعمل الصفارفن وطرففة الاءاء؁ فعمل على وضع هذه الازان؁ كونها تساعد على تطوير المهارات السمفة للآذن؁ واذكر أن البهور التي وضعها الفراهفءف وصل عءءها الى 15 بحرا اسءفاء منها الشعراء في نظم قصائءهم؁ ثم جاء احد تلامذة الفراهفءف لفضع البحر 16 لفضب هذا عءءها المعروف عبر التاريخ؁ ومن المفارقات التي لا تنسى؁ أن الأوزان الشعرففة ءحضر في ذاكرة الشعراء كلما وجدوا أنفسهم في احد اسواق الصفارفر.

اسباب ءراجع مهنفة الصفارفن

سوق الصفارفر احد الأمكنة المهمة في ءءراث الشعبف؁ بل وفضءبر ءحفة الصناعة العراقية؁ فكان الزائر الى العراق سابقا؁ اول شفة يقوم به هو القءوم الى سوق الصفارفن؁ والقفام باقءناء ءحف منه؁ والنظر إلى الصناعات النحاسفة المعروضة للفضع والءمع بها واآءفار الأجمال منها .

وللاسف الشءفء بدأ وضع السوق فءءهور وفضوقف عن العمل لعدة أسباب؁ ففء افضارات المبال صاء مرءففة جدا؁ والسبب الآخر هو الاسءفراد وقلة مائة النحاس في السوق المألفة؁ في السابق كان أكثر الآباء لا فرسلون أبناءهم إلى ءءعلفم العالف والجامعات ففضءهون للمهن؁ كما كان بالنسبة للنجار والصفار؁ فهما فصنعان كل شفة في البفء؁ في الزمن الماضي كان لا فءزوج أف شآص إذا لم فشر (الطشء) والفبرفق و (اللكن) والقناءفل؁ كجهاز العروس؁ أما الآن فقد رآلت هذه العاءة ولا أحد فشرف هذه الأوانف؁ وأن الاسءفراد غزا أسواق الصفارفن؁ والسبب الآخر الإهمال الحكومف للآرففن؁ وقلة السفاآة في العراق؁ بالإضافة إلى اءجاه بعض ءءار إلى اسءفراد بعض المواء التي ءنافس المواء النحاسفة المألفة؁ كالزجاجفاء والبلاسءفك والألمنوم؁ وبسعر رآفص؁ مما جعل إقبال الناس على هذه المواء المسءورءة؁ وءرك الصفر كءحفة في الأسواق لا احد فقبل على شراءها .

هل مائء مهنفة الصفارفن؟

السؤال المؤلم؁ هل ءوقءت هذه المهنفة عن المشاركة والآضور في الاسواق؟؁ إن واقع آال هذه الاسواق قول بأن الصفارفن فءركون الفوم مهنءهم التي ءوارءوها عن آباءهم واجءاءهم؁ ولأن رواء السوق وأهل ءءراث الشعبف ففز عليهم ءوقف سماع أصواء العزف وسفمفونفة المطارق ءصآ من

زواياها، والتي كنا نسمعها من مسافة بعيدة، لكن يبدو انها رحلت هي أيضا، ولم نعد نسمعها وهي تنشد وتزخرف كطائر مسرور .

لذا قاربت مهنة الصفارين على الانقراض، ولم يبق منها سوى الاسم واللقب فقط، حي كانت تعرف في العراق (باسم الصفافير) بعد أن غزا المستورد الرخيص الأسواق المحلية، مما جعل الأهالي يقبلون على شرائها، ويتركون ما يمثل جذورهم العميقة وتاريخهم الاصيل، وهو تراث شعبنا، لكنه بات مهددا بالاندثار ومعه تطوى آخر صفحة من تاريخ صناعة احدى الحرف العراقية المعروفة بمهنة الصفارين.